الدكتور خالد محمود*

موضوعات و أساليب للخطب و الرسائل الرسمية للخلفاء الراشدين .

اسعنى صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم مدة طويلة تحت رعايته و اشرافه الدقيق يؤدبهم و يعلمهم و يزكيهم فتحلوا بالزهد و الورع و العفاف و الامانة و الايثار على النفس و خشية الله فاذا تولوا امرا من امور الناس لم يعتبروه مغنما اوثمنا لما انفقوا من مال اوجهد بل عدوه امانة فى عنقهم و ابتلاء من الله ، و كان زمام الحكم بيد الرجال الذين كان كل فرد منهم معجزة جليلة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ايمانا و عملا و خلقا و تربية و تزكية نفس و علوسيرة و سلوك ، لقد صاغ النبى صلى الله عليه وسلم هؤلاء الصحابة فى قالب الاسلام صوغا محمودا ، و كان الواحد منهم تقيا ورعا ، و بطلا مجاهدا ، و قاضيا عادلا، و فقيها مجتهدا ، و اميرا حازما ، و سياسيا محنكا ، و كان الدين و السياسة يتمثلان فى شخص واحد و هو شخص الخليفة و امير المومنين .

فتخرج هؤلاء الاصحاب فى المدرسة النبوية و نهلوا من المنبع الصافى الذى لا ينضب و لايصيبه الكبر ، و تلقوا تربية واحدة ، و افرغوا فى قالب واحد يحملون روحا واحدة ، و كان افضلهم و اقربهم الى الرسول صلى الله عليه وسلم الخلفاء الراشدون الذين تولوا الخلافة حوالى ثلاثين سنة ، و كان لهم فكرة خالصة للحكم الاسلامى و سلكوا فى الحكم منهجا وضعه النبى صلى الله عليه وسلم على ضوء القران ، و استناروا بالكتاب و السنة - المصدرين الاولين للنور و الهداية فى ادارة شؤون الحكومة .

و الخطب و الرسائل للخلفاء الراشدين تلقى الضوء على فكرتهم للحكم الاسلامى الذى اقاموه على ضوء الكتاب و السنة النبوية .

تبدا الخطب و الرسائل للخلفاء الراشدين باسم الله و الحمد لله و الثناء عليه دائما و يذكر فيها الخلفاء الناس و فى نفس الوقت يذكرون انفسهم بان جميعهم عبيد و ان الحاكم الاصيل - فى حقيقة الامر - هو الله عز و جل .

---

*مدير البحوث مجمع الدعوة و تربية الائمة الجامعة الاسلامية العالمية فى اسلام آباد

كتاب عمر ابن الخطاب الى ابى موسى الاشعرى رضى الله عنهما : «اما بعد : فان للناس نفرة من سلطانهم فاعوذ بالله ان تدركنى . . . . . عد مريض المسلمين ، و احضوجنائزهم و افتح بابك و باشر امورهم بنفسك فانما انت رجل منهم غير ان الله جعلك اثقلهم حملا . . . .»[١]

«و كتب عمر الى ابى عبيدة - رضى الله عنهما - كتابا يقول فيه بسم الله الرحمن الرحيم من عبدالله عمر الى عامله بالشام ابى عبيدة ابن عامر الجراح».[٢]
و كتب على رضى الله عنه - للاشتر النجعى لما ولاه على مصر .

«بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما امر به عبدالله على امير المومنين».[٣]
و قال سيدنا على رضى الله عنه فى خطبة القاها عقب البيعة له :

«ايها الناس انما انا رجل منكم ، لى مالكم و على ما عليكم ، و انى حاملكم على منهج نبيكم و منفذفيكم ما امرت به . . . . فانتم عباد الله ، و المال مال الله ، يقسم بينكم بالسوية ، ولا فضل لاحد على احد ، و للمتقين عندالله احسن الجزاء».[٤]

و لم يدع الخلفاء الراشدون - حين تولو الخلافة - الناس الى الاعتراف بحاكميتهم كما يفعل الملوك و الحكام الدنيويون فى النظم الاخرى ، فان الحاكم فى الاسلام بعد ولايته للامر لايملك الاتنفيذ الشريعة التى لم يضعها هو و انما وضعها الله و سلطته على المحكومين مستمدة من قيامه بتنفيذ الشريعة لا اكثر ، و دعا هولاء الخلفاء الناس الى الاعتراف لله بالملك و السلطان و الامر و النهى و اعترفوا لا نفسهم بالعبودية و الطاعة المطلقة و استسلموا للحكم الالهى استسلاما كاملا و تنازلوا عن احوائهم و انا نيتهم و اصبحوا عبيدا لا يملكون مالا و لا نفسا ولا تصرفا فى الحياة الا ما يرضاه الله و يسمح به .

ان القارى للخطاب و الرسائل يحس بالجو الشامل لها و هو الخوف من الجليل - تقوى الله . و قد و ردت كلمة «التقوى» فى عدة مواطن من القرآن الكريم حيث قال الله تعالى :

١- حياة الصحابة ليوسف الكاندهلوى ، ج ٢ ، ص ٢٧٥ - ٢٧٦
٢- فتوح الشام للواقدى ، ج ١ ، ص ٢٠١
٣- شرح نهج البلاغة لا بن ابى الحديد ، ج ٤ ، ص ١١٩
٤- العدالة الاجتماعية لسيد قطب ، ص ٢١٦

«ذلک الکتاب لا ریب فیه هدی للمتقین».[١]

و کتب السید قطب فی تفسیر کلمة «التقوی» :

ورد ان عمر ابن الخطاب رضی الله عنه - سال ابی ابن کعب عن التقوی فقال له : اما سلکت طریقا ذاشوک قال بلی قال : فما عملت قال : شمرت و اجتهدت. قال : فذلک التقوی .

فذلک التقوی. حساسیة فی الضمیر ، و شفافیة فی الشعور ، وخشیة مستمرة و حذر دائم ، و توق لاشواک الطریق . . . طریق الحیاة - الذی تتجاذبه اشواک الرغائب و الشهوات و أشواک المطامع و المطامح ، و اشواک المخاوف و الهواجس ، و اشواک الرجاء الکاذب فیمن لا یملک اجابة رجاء ، و الخوف الکاذب ممن لا یملک نفعا و لاضرا. و عشرات غیرها من الاشواک».[٢]

و عن ابن عباس رضی الله عنه - المتقون هم المومنون الذین یتقون الشرک و یعملون بطاعة الله».[٣]

و کلمة «تقوی» التی تضمنتها جمیع الخطب و الرسائل للخلفاء الراشدین معناها الخشیة من الله .

«و خشیة» الله من اهم اسس اسلام الوجه لله و هو فی حقیقة الامر «التوحید» - خلاصة الدین الاسلامی .

الخشیة او الخوف من الله عز و جل هو اساس لجمیع الافعال و الاعمال و الاخلاق و السلوک فی الاسلام ، و هو الدافع القوی المؤثر الذی یدفع المسلم الی افعال الخیر و الواجب و یمنعه عن المنکرات و الشرور ، فان الخلفاء الراشدین یوصون الولاة و الامراء و الناس بتقوی الله دائما ، فقال ابوبکر الصدیق لعمرا بن الخطاب رضی الله عنهما - حین استخلفه عند موته :

١- سورة البقرة ١

٢- فی ظلال القرآن لسید قطب ، ج ١ ، ص ٣٩

٣- مختصر تفسیر ابن کثیر ، ج ١ ، ص ٢٨

«انى مستخلفك من بعدى و موصيك بتقوى الله».[1]

اخرج ابو نعيم فى الحلية (١ : ٣٥) عن عبدالله بن عكيم قال : خطبنا ابوبكر رضى الله عنه فقال : اما بعد فانى اوصيكم بتقوى الله ، و ان تثنوا عليه بما هو له اهل ، و ان تخلطوا الرغبة بالرهبة ، و تجمعوا الالحاف بالمسالة . . . ثم اعلموا عباد الله ان الله تعالى قدار تهن بحقه انفسكم و اخذ على ذلك مواثيقكم ، و اشترى منكم القليل الفانى بالكثير الباقى و هذا كتاب الله فيكم لا تفنى عجائبه و لا يطفا نوره فصدقوا قوله و انتصحوا كتابه و استبصروا فيه ليوم الظلمة ، فانما خلقكم للعبادة . . .».[2]

و وصى ابوبكر لعمرو ابن العاص رضى الله عنهما اذا ستعمله على الجيوش الى الشام ، و خرج ابوبكر الصديق رضى الله عنه يمشى الى جانب راحلة عمر وابن العاص رضى الله عنه و هو يوصيه و يقول :

«يا عمر واثق الله فى سرائرك و علانيتك و استحيه فانه يراك ويرى عملك . . . فكن من عمال الاخرة وارد بما تعمل وجه الله و كن و الدا لمن معك».[3]

و كتب ابوبكر الى عمرو والى الوليد ابن عقبة رضى الله عنهم و كان على النصف من صدقات قضاعة ، و قد كان ابوبكر رضى الله عنه شيعهما على الصدقة ، و اوصى كل واحد منهما بوصية واحدة فقال :

اتق الله فى السر و العلانية ، فانه من يتق الله يجعل له مخرجا و يرزقه من حيث لا يحتسب و من يتق الله يكفر عنه سيئاته و يعظم له اجرا ، فان تقوى الله خير ما تواصى به عباد الله . . .».[4]

و اخرج ابو نعيم فى الحلية (١ : ٣٤) عن عروة ابن الزبير عن ابيه ان ابابكر رضى الله عنه خطب الناس فقال : يا معشر المسلمين استحيوا من الله عز و جل ، فو الذى نفسى بيده انى لا ظل حين اذهب الى الغائط فى الفضاء متقنعا بثوبى استحياء من ربى عز و جل».[5]

و ذكر فى الكنز (٨ : ٢١٠) عن موسى ابن عقبة قال : هذه خطبة عمر ابن الخطاب رضى الله عنه يوم الجابية :

١- البيان و التبيين للجاحظ ، ج ٢ ، ص ٦١
٢- حياة الصحابة لمحمد يوسف الكاندهلوى ، ج ٤، ص ٢٣٩
٣- حياة الصحابة لمحمد يوسف الكاندهلوى ، ج ٢ ، ص ٢٦٣
٤- نفس المرجع، ج ٢، ص ٢٦٤ و تاريخ الامم الملوك للطبرى، ج ٤، ص ٢٩
٥- نفس المرجع ، ج ٤ ، ص ٢٤٦

اما بعد، فانی اوصیکم بتقوی الله الذی یبقی و یغنی ماسواه ماسواه ، الذی بطاعته یکرم اولیاؤه ، و بمعصیته یضل اعداؤه . . . و قد قضیت الذی علی فیما ولانی الله عز و جل من أمورکم. . . فلاحجة لکم علی الله، بل لله الحجة علیکم ، اقول قولی هذا واستغفر الله لی ولکم»[1].

وصیة عمر ابن الخطاب لابی عبیده ابن الجراح - رضی الله عنها.

««اوصیک بتقوی الله الذی یبقی و یغنی ماسواه ، الذی هدانا من الضلالة ، و اخرجنا من الظلمات الی النور ، . . . »[2].

وصیته لسعد ابن ابی وقاص - رضی الله عنه.

«انی قدولیتک حرب العراق فاحفظ وصیتی . . . فعود نفسک و من معک الخیر ، واستفتح به واعلم ان لکل عادة عتادا فعتاد الخیر الصبر ، فالصبر الصبر علی ما اصابک او نابک ، یجتمع لک خشیة الله ، واعلم ان خشیة الله تجتمع فی امرین : فی طاعته و اجتناب معصیته . . . »[3].

وصیة أخری کتبنا الی سعد ابن ابی وقاص :

«اما بعد : فانی آمرک و من معک من الا جناد بتقوی الله علی کل حال ، فان تقوی الله افضل العدو ، واقوی المکیرة فی الحرب . . . ».

ان عمر ابن الخطاب قال لعتبة ابن غزوان- رضی الله عنهما.

اذاوجهه الی البصرة :

«یا عتبة انی قد استعملتک علی ارض الهند وهی حومة من حومة العده ، وارجو ان یکفیک الله ماحولها و ان یعینک علیها ، . . . واتق الله فیما ولیت ، و ایاک ان تنازعک نفسک الی کبر یفسد علیک آخر تک . . . »[4].

و اخرج الدینوری و ابن عساکر عن الحسن ان عثمان ابن عفان - رضی الله عنه - خطب الناس ، فحمد الله و اثنی علیه ، ثم قال : ایها الناس اتقوا الله ، فان تقوی الله غنم ، و ان اکیس الکیس من دان نفسه و عمل لما بعد الموت و اکتسب من نور الله نور الظلمة القبر و لیخش عبد ان یحشره الله اعمی کان بصیرا . . . »[5].

وقال فی آخر خطبة لعثمان ابن عفان رضی الله عنه :

١- نفس المرجع ، ج ٤ ، ص ٢٥٦-٢٥٩.
٢- حیاة الصحابة لمحمد یوسف الکاندهلوی ، ج ٢ ، ص ٢٧٠ و تاریخ الطبری ، ج ٤ ، ٥٤ -
٣- جمهرة خطب لعرب لاحمزکی صفوت ، ج ١ ، ص ٩٢ -
٤- جمهرة خطب لعزب لاحمد زکی صفوت ، ج ١ ، ص ٩٣ -
٥- نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٢٧٣ و تاریخ الطبری ، ج ٤ ، ص ١٥٠ -
٦- خیاة الصحابة لیوسف الکاندهلوی ، ج ٤ ، ص ٢٧٨-٢٧٩ -

«ان الله عزوجل انما اعطا كم الدنيا لتطلبوا بها الاخرة ولم يعطكموها لتركنوا اليها ، ان الدنيا تفنى و الاخرة تبقى . . . اتقوا الله جل و عز فان تقواة جنة من بأسه و وسيلة عنده ، و احذر و امن الله الغير ، والزموا جماعتكم . . . »[١].

و فى اول خطبة القاها على رضى الله عنه - حين تولى الخلافة :

«حمد الله و اثنى عليه فقال : ان الله عز و جلى انزل كتابا هاديابين فيه الخير والثر ، فخذوا بالخيرو دعوا الثر . . . اتقوا الله عباده و بلاده ، انكم مسئولون حتى عن البقاع و البهائم ، اطيعوا الله عز و جل ولا تعصوه . . . »[٢]

و كتب على - رضى الله عنه - الى الاشتر النشعى لما ولاه على مصر.

«بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما امر به عبدالله على امير المومنين ، مالك ابن الحارث الاشتر فى عهده اليه حين ولاه مصر جباية خراجها و جهاد عدوها واستصلاح اهلها و عمارة بلادها ، امره بتقوى الله و ايثار طاعته و اتباع ما امر به فى كتابه من فرائضه و سننه . . . »[٣].

و وصى على - رضى الله عنه - شريح ابن هانى لما جعله على مقدمته الى الشام اتق الله فى كل مساء و صباح ، وخف على نفسك الدنيا الغرور ، ولا تامنها على حال واعلم انك ان لم تردع نفسك عن كثير مما تحب مخافة مكروهه سمت بك الاهوا الى كثير من الضرر. . . »[٤].

احتوت الخطب و الرسائل الدعوة الدائبة الى عبادة الله وحده و الاعتراف بحاكميته. فقام الخلفاء الراشدون بالدعوة الى عبادة الله وحده الذى قام بها جميع الرسل و الانبياء.

وهناك لابد من الاشارة الى ان مفهوم العبادة فى الاسلام واسع ، فان كل عمل يقوم به المؤمن يقصد به وجه الله فهو عبادة لله عز و جل ، و ان جميع الاعمال التى نوديها فى الحياة العادية تدخل تحت معنى العبادة.

اخرج الترمذى - باسناده عن عدى بن حاتم - رضى الله عنه - لما دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم - و فى عنقه - «اى» «عدى» صليب من فضة وهو اى النبى صلى الله عليه وسلم - يقرا هذه الاية . . .

١- نفس المرجع ، ج ٤ ، ص ٢٨٢ و تاريخ الطبرى ، ج ٥ ، ص ١٤٩ -
٢- نفس المرجع ، ج ٤ ، ص ٢٨٣ و تاريخ الطبرى ، ج ٥ ، ص ١٥٧ -
٣- شرح نهج البلاغة لا بن ابى الحديد ، ج ٤ ، ص ١١٩ -
٤- نفس المرجع ، ج ٤ ، ص ١٦٠-١٦١ -

«اتخذوا احبارهم ورهبانهم اربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما امروا الا ليعبدوا الها واحدا — قال : فقلت انهم لم يعبدوهم. فقال : بلى انهم حرموا عليهم الحلال واحلو الهم الحرام فاتبعوهم ، فذلک عبادتهم اياهم»[1]

و تفسير رسول الله صلى الله عليه لقول الله تعالى سبحانه نص قاطع ان الاتباع في الشريعة و الحكم هو العبادة.

عن ابى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم.

«من ياخذ عنى هؤلا الكلمات فيعمل بهن اويعلم من يعمل بهن ، قلت انا رسول الله فاخذ بيدى فعد خمسا فقال : اتق المحرم تكن اعبد الناس و ارض بما قسم الله لک تكن اغنى الناس و احسن الى جارک تكن مؤمنا واجب للناس ما تحب لنفسک تكن مسلما ، ولا تكثر الضحک فان كثرة الضحک تميت القلب رواه الترمذى و احمد»[2].

و قدوردت كلمة «العبادة» فى القرآن الكريم فى معنى الطاعة.

«الم اعهد اليكم يا بنى آدم ان لا تعبدوا الشيطان انه لكم عدو مبين»[3].

فان الشيطان لايعبده احد فى الدنيا بل يلعنه الناس كلهم وهو يطاع فى او إمره ولا يعبد ، فمعنى العبادة هنا طاعة الشيطان و ان الحاكم الذى يعدل بين الناس هو فى عبادة للخالق عز و جل ، و المجاهد فى سبيل الله هو فى عبادة لله جل و علا ، والمعلم الذى يعلم الناس الخير يعبدالله بتعليمه للناس والمتعلم الذى يبحث عن الحقيقة فانه فى عبادة لله تعالى. قال تعالى : «يرفع الله الذى آمنوا منكم والذين اوتوا العلم درجات»[4].

و قال صلى الله عليه وسلم : «من سلک طريقا يطلب فيه علما سلک الله به طريقا الى الجنة»[5].

فان الخلفاء الراشدين لم يخرجوا ليؤ سسوا امبرا طورية عربية ينعمون ويرتعون فى ظلها و يخرجون الناس من حكم الروم و الفرس الى حكم العرب و الى حكمهم أنفسهم. انما قاموا ليخرجوا الناس من المعبودية و الرق لحكامهم الى عبادة الله وحده.

فقال ابوبكر الصديق - رضى الله عنه - في اول خطبة القاها عقب البيعة له :

«حمد الله واثنى عليه قال : اما بعد . . .

. . . أطيعونى ما اطعت الله و رسوله ، فاذا عصيت الله و رسوله فلاطاعة لى

١- فتح المريد شرح كتاب التوحيد للشيخ عبدالرحمن حسن ، ص ١١٠ و تفسير «مختصر» لا بن كثير ، ج ٢ ، ص ١٣٧ -

٢- مشكواة المصابيح باب الرقاق ، ص ٤٤٠ -

٣- سورة يسين : ٤٠ -

٤- سورة المجادلة : ١١ -

٥- تهذيب احياء علوم الدين لابى الحامد الغزالى ، ج ١ ، ص ٢٥ -

عليكم . . .»[1]

«و ذكر في الكنز (٨ : ٢١٠) عن موسى ابن عقبة قال : هذه خطبة عمر ابن الخطاب يوم الجابية : اما بعد . . . و انما علينا ان نامركم بما امركم الله به من طاعته و ننهاكم عمانهاكم الله عنه من معصيته ، و ان نقم فيكم امر الله عز و جل في قريب الناس و بعيدهم . . . »[2].

و كتب عمر ابن الخطاب الى العلاء ابن الحضرمي - رضى الله عنهما - و هو با لبحرين :

«فالخلق و الامر لله رب العالمين ، واعلم ان امر الله محفوظ بحفظ الذى انزله، فانظر الذى خلقت له ، فاكدح له ودع ماسواه ، فان الدنيا اسد و الاخرة ابد . . .

واهرب الى الله من سخطه فان الله يجمع لمن يشاء الفضيلة في حكمه و علمه . . . »[3].

واخرج ابن سعد (٣ : ٢٢٢) عن سليمان بن يسار قال : خطب بن الخطاب الناس في زمان الرماده ، فقال : ايها الناس اتقوا الله في انفسكم . . . فهلعموا فلندع الله ، يصلح قلوبنا ، و ان يرحمنا ، و ان يرفع عنا المحل ، قال فرئى عمر يومئذ رافعا يديه يدعو الله ، و دعا الناس و بكى ، و بكى الناس مليا ثم نزل»[4]

ذات مرة خطب عمر ابن الخطاب حمد الله واثنى عليه ثم قال : ان الله عز و جل لا يقبل من الاعمال الا ما اريد به وجهه ، فاريدوا الله باعمالكم ، واعلموا ان ما أخلصتم لله من اعمالكم فطاعة اتيتموها . . . الا ان الله - لا شريك له - ليس بينه و بين احد من خلقه سبب يعطيه به خيرا ولايصرف عنه به سؤا الا بطاعته و اتباع امره واعلموا انكم عبيد مدنيون ، و ان ما عنده لا يدرك الابطاعته»[5].

واخرج الفضائلى الرازى عن العلاء بن الفضل عن امه قال : لما قتل عثمان - رضى الله عنه - فتشوا خزانته ، فوجدوا فيها صندوقاً مقفلا ، ففتحوه فوجدوا فيه ورقة مكتوب فيها :

«هذه وصية عثمان: بسم الله الرحمن الرحيم. عثمان بن عفان يشهد ان لااله الاالله وحده لا شريك له ، و ان محمدا عبده و رسوله ، و ان الجنة و ان النار حق . . . »[6].

١- السيرة النبوية لا بن هشام ، ج ٤ ، ص ٣١١.
٢- حياة الصحابة لمحمد يوسف الكاندهلوى ، ج ٤ ، ص ٢٥٦.
٣- حياة الصحاة لمحمد يوسف الكاندهلوى ، ج ٢ ، ص ٢٧٤-٢٧٥.
٤- نفس المرجع ، ج ٤ ، ص ٢٧٦
٥- نفس المرجع ، ج ٤ ، ص ٢٧٦
٦- حياة الصحابة ليوسف الكاندهلوى ، ج ٢ ، ص ٢٧٧

و فى اول خطبة خطبها على - رضى الله عنه - حين استخلف ، حمد الله واثنى عليه، وقال: ان الله عز و جل انزل كتابا هاديا بين فيه الخير والشر ، فخذوا بالخير و دعوالشر. والفرائض ادوها الى الله سبحانه يؤدكم الى الجنة .... وشد بالا خلاص والتوحيد المسلمين .... اتقوالله فى عباده ..... أطيعوا الله عزوجل ولا تعصوه .....»[1]

و قال سيدنا على - رضى الله عنه - فى خطبة له :

«الحمد لله أحمده ، واستعينه، أومن به ، وأتوكل عليه ، وأشهد ان لا اله الاالله وحده لا شريك له وان محمدا عبده ورسوله ، أرسله بالهدى و دين الحق ليزيح به علتكم وليو قظ به غفلتكم ....»[2]

وأخرج الدينورى وابن عساكر عن على - رضى الله عنه - انه خطب الناس ، فحمد الله واثنى عليه ، ثم قال : اما بعد فان الدنيا قدا دبرت وآذنت بوداع والآخرة قدأقبلت ..... الافا عملوا لله فى الرغبة كما تعملون له فى الرغبة ....

الا ان الشيطان يعدكم الفقر ويأ مركم بالفحشاء، والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم.

..... فان الله تبارك و تعالى وعد جنته من أطاعه وعد، ناره من عصاه ....»[3]

تضمنت الخطب والرسائل انكسار الخلفاء الراشدين وتواضعهم لله واستعانتهم به فى جميع الامور. فأن الخلفاء قد تربوا فى المدرسة النبوية - ان جاز التعبير - ومكثوازمنا طويلا تحت اشواف النبى صلى الله عليه وسلم الوقيق، فيقول النبى صلى الله عليه وسلم :

«كلكم بنو آدم، و آدم خلق من تراب، و لينتهين قوم يفخرون بآبائهم اوليكونن اهون على الله تعالى من الجعلان»[4]

و لم يدع الخلفاء انه يجرى فى عروقهم دم الهى ولم يروا انفسهم فوق القانون و فوق الانتقاد و فوق البشر، و يمتاز الخلفاء بانهم كانوا امثلة كاملة نادرة فى الانكسار و التواضع ولم تصبهم الانفة و كبر النفس حين تولوا الحكم انهم از دادو انكسارا و تواضعا ، مع ان حكومتهم كانت اكبر حكومات العالم ، و قوة سياسية مادية تفوق كل قوة فى عصرها ، و ظل هؤلاء الخلفاء اعفة اسناء خاشعين متواضعين ، و نراهم يستغفرون الله دائما و يستعينون به فى جميع الشؤون .

فمما قال ابو بكر الصديق - رضى الله عنه - فى اول خطبة القاها يدل على الكساره و تواضعه :

١- تاريخ الامور والملوك للطبرى ج ٥ ص ١٥٧

٢- حياة المحابة ليوف الكائد هلوى ج ٤ ص ٢٨٨

٣- نفس المرجع ج ٤ ص ٢٩٢

٤- تفسير ابن كثير سوره الحجرات ، ص . ٣ مطبعة المنار بمصر

«ايها الناس قدوليت امركم و لست بخيركم»[١]

— و من خطبة لابى بكر - رضى الله عنه :

«او صيكم بالله لفقركم و فاقتكم ، ان تتقوه و ان تثنوا عليه بما هو أهله و ان تستغفروه انه كان غفارا . . . . و انه لا خير بخير بعده النار ، ولا شر بشر بعده الجنة اقول قولى هذا و استغفر الله لى ولكم»[٢]

— و من خطبة جامعة له :

« . . . . و اياكم و الفخر ، و ما فخر من خلق من تراب ، ثم الى التراب يعود ثم يا كله الدود . . . . فالى لا آلوكم و نفسى ، والله المستعان ولا حول ولا قوة الا بالله ، . . . و استغفر الله لى ولكم . . . .»[٣]

«و اخرج ابن ابى شيبة عن الس - رضى الله عنه - قال : كان ابوبكر - رضى الله عنه يخطبنا ، فيذكر بدء خلق الانسان فيقول : خلق من مجرى البول مرتين فيذكر حتى يتقذر احدنا نفسه . كذا فى الكنز (٨ : ص ٢٠٥)»[٤]

و ذات مرة خطب عمر ابن الخطاب - رضى الله عنه - فقال : «ان الله عز و جل قد ولانى امركم . . . . و انى اسال الله ان يعيننى عليه ، و ان يحرسنى عنده كما حرسنى عنده غيره و ان يلهمنى العدل فى قسمكم كالذى امر به ، انى امرؤ مسلم وعبد ضعيف ، الا ما اعان الله عز و جل ، ولن يغير الذى و ليت من خلافتكم من خلقى شيئا ان شاء الله ، انما العظمة لله عز و جل ، للعباد منها شى ، فلا يقولن احد منكم : ان عمر تغير منذولى ، اعلل الحق من نفسى و اتقدم . . . . »[٥]

و قال فى احدى الخطب له:

« ان العبد اذا تواضع لله رفع الله حكمته ، و قال : انتعش نفسك الله ، و هو فى نفسه حقير و فى اعين الناس كبير ، و اذا تكبر و عدا طوره ، و همه الله الى الارض . . . . »[٦]

و من احدى الرسائل له الى الاشتر النخعى لما ولاه على مصر :

«و اشعر قلبك الرحمة للرعية ، و المحبة لهم ، و اللطف بهم ، ولا تكونن عليهم سبعا ضاريا تغتنم اكلهم . . . . والله فوق من ولاك . . . . ولا تقولن انى مؤمر فاطاع ، فان ذلك ادغال فى القلب ، منهكة للدين ،

— و اذا احدث لك ما انت فيه من سلطانك ابهة او مخيلة ، فانظر الى عظم ملك

١- تاريخ ابن الاثير ، ج ٣ ، ص ١٣٨

٢- حياة الصحابة ليوسف الكاندهلوى ، ج ٤ ، ص ٢٤٠ - ٢٤١

٣- نفس المرجع ، ج ٤ ، ص ٢٤٣ - ٢٤٥

٤- نفس المرجع ، ج ٤ ، ص ٢٤٨

٥- حياة الصحابة لمحمد يوسف الكاندهلوى ، ج ٤ ، ص ٢٦١ - ٢٦٢ و تاريخ الطبرى ، ج ٥ ، ص ٣٦

٦- نفس المرجع ، ج ٤ ، ص ٢٦٨

الله فوقك ، و قدرته منك على مالا تقدر عليه من نفسك ،

—اياك و مساماة الله فى عظمته و التشبه به فى جبروته ، فان الله يذل كل جبار و يهين كل مختال»[١]

—و تحدثت الخطب و الرسائل عن الموت و الاخرة و الاعتبار بمن مضى ، و تكلم الخلفاء كثيرا عن الموت و الاخرة فى خطبهم و وصايا هم و ذكروا امراءهم و ولاتهم و الناس بفناء الدنيا و بقاء الاخرة .

—و آيات القرآن الكريم تلفت انظار الناس دائما الى هذه الحقيقة ، و تركز القول فى مناسبات كثيرة على فكرة الايمان بالدار الاخرة ، لان الايمان بها يرقق القلوب ، و يفجر العواطف بالخير ، و ياخذ بيد المؤمن الى طريق العفة و الاستقامة ،

و الكفر بالاخرة يقذف فى قلب صاحبه القسوة ، و يطلق لغرائزه العنان ، لا انه لا يتوقع مواخذة على فعله ، كما لا ينتظر ثوابا عما تعفف عنه من الحرام ، فيحمله ذلك الركون الى متع الدنيا ، و الانغماس فى لهوها و ترفها ، لان الحياة - فى نظره - هى الاولى و الاخرة ، ولا شك ان هذه الغفلة تودى به الى الهلاك و البوار:

«ان الذين لا يرجون لقاء نا و رضوا بالحياة الدنيا و اطمانوا بها و الذين هم عن آياتنا غافلون . اولئك ما واهم النار بما كانوا يكسبون»[٢]

و الانسان فى زحمة الحياة قد ينسى الموت ، و فى غمرة العمل للدنيا قد يغفل عن انه كادح الى ربه كدحا فملاقيه ، فلا بد من ذكر الموت و التذكير به ، فى فترات لاتدع القلب يستسلم للغفلة و الذهول .

قال انرسول صلى الله عليه وسلم : « اكثروا من ذكر هازم اللذات - يعنى الموت . . . . »[٣]

« و عن بريدة بن الحصيب الاسلمى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزور ها فانها تذكر الاخرة»[٤]

فذكر الموت يخفف عن بريق الدنيا فلا تخدع الابصار و يقلل من اندفاع الناس فى طريق المادة ، فلا يصبحون مسخرين لها ، حتى لا يكون الانسان عبدا لرغباته .

و ان الخلفاء الراشدين يلفتون انظار الناس و انظار الولاة دائما الى هذه الحقيقة و يركزون الا قوال فى خطبهم و رسائلهم على فكرة الايمان بالاخرة و يشدون الابصار الى الاعتبار بمن مضى .

فقال سيدنا ابوبكر الصديق - رضى الله عنه - فى خطبة له :

« . . . . اعتبروا عباد الله بمن مات منكم ، و تفكروا فيمن كان قبلكم ، اين كانوا امس ، و اين هم اليوم اين الجبارون و اين الذين كان لهم ذكر القتال و الغلبة فى مواطن الحروب قد تضعضع بهم الدهر ، و صاروا رميماً . . . . و اين الملوك الذين اثاروا الارض و عمرو ها قد بعدوا ونسى ذكر هم ، و صاروا كلا شىء . . . . فان نحن

١- شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد، ج ٤، ص. ١٢ ٢- سورة يونس: ٧ ، ٨
٣- الترغيب و الترهيب للمنذرى ،ج ٦ ، ص٦١
٤- مشكواة المصابيح باب زيارة القبور ١٥٤

اعتبرنا نجونا، و ان اغتررنا كنا مثلهم، اين الوضاء الحسنة وجوههم المعجبون بشبابهم صاروا ترابا ، و صاروا ما فرطوا فيه حسرة عليهم ، اين الذين بنو المدائن و حصنو ها بالحوائط ، وجعلوا فنها الا عاجيب ، قد تركو ها لمن خلفهم، فتلك مساكنهم خاوية، و هم فى ظلمات القبور . . . .»[١]

و لما حضر ابا بكر- رضى الله عنه - الموت اوصى لعمر ابن الخطاب- رضى الله عنه:

«تعلم عمر ان الله حقا فى الليل لا يقبله بالنهار . . . . و انما ثقلت موازين من ثقلت موازنية يوم القيامة باتباعهم الحق . . . . و انما خفت موازين من خفت موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل . . . . »[١]

و قال فى احدى الخطاب له :

«الحمد لله رب العالمين ، احمده و نستعينه . . . . ثم هو اليوم حى و غدا ميت ، فاعملوا يوما بيوم ، و ساعة بساعة ، و توقوا دعاء المظلوم و عدوا انفسكم فى الموتى . . . .»[٢]

و قال سيدنا عمر ابن الخطاب - رضى الله عيه - خطبة له :

«حمد الله و اثنى عليه بما هو اهله ، ثم ذكر الناس بالله عز و جل و اليوم الاخر . . . .»[٣]

«و اخرج البيهقى عن ابى هريرة - رضى الله عنه - قال : كان عمر ابن الخطاب - رضى الله عنه - يقول فى خطبته : افلح منكم من حفظ من الهوى و الغضب و الطمع ، . . . . . ايا كم و الفجور ، ما فجور من خلق من التراب و الى التراب يعود اليوم حى و غدا ميت ، اعملوه عمل يوم بيوم ، واجتنبوا دعوة المظلوم ، وعدوا انفسكم من الموتى)[٤]

و فى وصيته لابى عبيدة ابن الجراح رضى الله عنه :

« . . . اياك وا لقاء المسلمين فى الهلكة وقد ابلاك الله لى وابلانى بك ، فغض بصرك عن الدنيا و اله قلبك عنها ، و اياك ان تهلك كما اهلكت من كان قبلك فقد رايت مصارعهم»[٥]

«واخرج ابن جريد الطبرى فى تاريخه (٣ : ٣٠٥) عن طريق سيف عن بدر بن عثمان عن عمه ، قال لما بايع اهل الشورى عثمان خرج و هو اشد كابة ، فاتى منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فخطب الناس ، فحمد الله و اثنى عليه وصلى على النبى

١- تاريخ الامم و الملوك، للطابرى ، ج ٣ ، ص ٢١١ المطبعة الحسنية المصرية
١- حياة الصحابة لمحمد يوسف الكاندهلوى ، ج ٢ ، ص ٢٦٠
٢- حياة الصحابة ، ج ٤ ص ٢٤٣ - ٢٤٤
٣- نفس المرجع ، ج ٤ ، ص ٢٦١ و تاريخ الامم و الملوك للطبرى ، ج ٥ ص ٢٥ - ٢٦
٤- نفس المرجع،ج٤، ص ٢٧٣-٢٧٤ ٥- نفس المرجع ، ج ٢، ص ٢٧٠-٢٧١

صلى الله عليه وسلم و قال : الكم فى دار قلعه ، و فى بقية اعمار ، فبا دروا آ جالكم بخير ماتقدرون عليه ، . . . الاوان الدنيا طويت على الغرور فلا تغر نكم الحياة الدنيا ولا يغر نكم بالله الغرور» اعتبروا يمن مضى ثم جدوا ولا تغفلوا ، فانه لا يغفل عنكم ، ابن ابناء الدنيا و اخوانها الذين اثاروا و عمروها و متعوابها طويلا ، الم تلفظهم ارموا بالدنيا حيث رمى الله بها ، و أطلبوا الاخرة . . . »[1]

و قال سيدنا عثمان - رضى الله عنه - فى آخر خطبة له :

«ان الله عز و جل انما اعطا كم الدنيا التطلبوا بها الاخرة ، ولم يعطكموها لتركنوا اليها ، ان الدنيا تفنى و الاخرة تبقى ، فلا تبطرنكم الفانية ولا تشغلنكم عن الباقية ، فاثروا مايبقى على ما يضنى ، فان الدنيا منقطعة ، و ان المصير الى الله . . . »[2]

و قد تحدث سيد نا على - رضى الله عنه- عن الموت و الاخرة :

«حمد الله و اثنى عليه و ذكر الموت فقال عباد الله ، و الله الموت ليس فيه فوت ، و ان اقمتم له اخذ كم ، و ان فررتم منه ادرككم ، فالنجاة النجاة و الوحاء الوحاء وراء كم طالب حثيث القبر ، فاحذروا ضغطته و المته و وحشته ، الاوان القبر حفرة من حفر النار او روضة من رياض الجنة . . . »[3]

و خطب يوما ، فحمد الله و اثنى عليه و صلى على النبى صلى الله عليه وسلم ثم قال : عباد الله لا تغرنكم الحياة الدنيا ، فانها دار بالبلا محفوفة و بالفناء مسروفة ، و بالغدر موصوفة ، و كل ما فيها الى زوال ، وهى مابين اهلها ذول و سجال . . . عباد الله انكم و ما انتم من هذه الدنيا ، عن سبيل من قد معنى ممن كان اطول منكم أعمارا، واشد منكم بطشا ، وا عمر ديارا، وابعد آثارا، فاصبحت أصواتهم ها مدة خامدة من بعد طول تقلبها، و اجسادهم بالية و ديارهم خالية»[4].

وقال فى خطبة له :

«فاتقوا الله عباد الله ، وجدوا فى الطلب ، وبادروا بالعمل ، مقطع النهمات وهارم اللذات ، فان الدنيا لايدوم نعيمها ، ولا تؤمن فجائعها ، غرور حائل شبح فائل ، . . . اتعظوا عباد الله بالعبر ، واعتبروا بالايات و الاثر وازدجروا بالنذر ، وانتفعوا بالمواعظ ، فكان قد علقتكم مخالب المنية ، وضمكم بيت التراب . . . كل نفس معها

١- حياة الصحابة لمحمد يوسف الكاندهلوى ، ج ٤ ، ص ٢٧٦-٢٧٧

٢- نفس المرجع ، ج ٤ ، ص ٢٨٢ ، تاريخ الطبرى ، ج ٥ ، ص ١٤٩

٣- نفس المرجع ، ج ٤ ، ص ٢٨٥

٤- حياة الصحابة ليوسف الكاندهلوى ، ج ٤ ، ص ٢٨٦

سائق يسوقها لمحشرها ، و شاهد يشهد عليها بعملها . . . »[١]

اساليب الخطب و الرسائل و بلاغتها :

ان القرآن الكريم هو افصح كلام بلاخلاف ، فلم يعرف تاريخ البشر كلاما قارب القرآن فى قوة تأثيرة فى العقول و القلوب، فهو الذى قلب طباع الامة العربية وحولها عن عقائدها و تقاليدها ، و صرفها عن عاداتها و عداوتها ، بدلها باميتها حكمة و علما و بجاهليتها ادبارائعاً .و حلماً ، و الف من قبائلها المتفرقة امة واحدة سارت العالم بعقائدها و فضائلها و عدلها و حضارتها و علومها و فنونها ، ولم تكن هذه الفصاحة و البلاغة خفية على اهل مكة فهم خبراء الفصاحة و فرسان البيان ، و كانت قريش من افصح قبائل العرب ، و بلغتها نظمت المعلقات و على لسانها دار حديث الشعراء فى عكاظ ، و كان بعضهم يسجد سماع القرآن و يقول سجدت لبلاغته ، ولكن غلبت عليهم العصبية و اعمتهم حميه الجاهلية فمنعتهم من اتباع الحق رغم وضوحه ، فللقرآن المقام الاول فى الفصاحة و البلاغة و يقف الحديث النبوى فى المرتبة الثانية فصاحة و بلاغة بعد بيان القرآن الكريم و فصاحته ، و كان الرسول صلى الله عليه وسلم من افصح العرب ، ساله ابوبكر - رضى الله عنه - مرة : لقد طفت فى العرب ، وسمعت فصحاء هم ، فما سمعت افصح منك ، فمن ادبك قال : ادبنى ربى فاحسن تاديبى»[٢]

اما القرآن الكريم فلايزال نموذ جاحياً من ناحيه اسلوبه المعجز و افكاره الخارقة فى لسان العرب ، يقراه الرجل العادى و يحفظ شيئا منه ، و يسمو اسلوبه على اساليب الناس و يعلوبيانه على بيان الاخرين ، هذا مع الرجل العادى ، فكيف انا كان ذلك مع الخلفاء الراشدين الذين نهلوا و تغذوا من المنبع الاصيل و النبع الصافى (القرآن الكريم) و تتلمذوا على افصح العرب - محمد صلى الله عليه وسلم و ترشفوا فصاحته و بلاغته.

كان خطب الخلفاء الراشدين و رسائلهم مليئة بالفصاحة و البلاغة و تجمع ميزات اسلوبى الخطابى و الادبى و ابرز صفاتهما ، اما من ناحية الاسلوب الخطابى فوجدت هنا قوة المعانى و الالفاظ ، و قوة الحجة و البرهان وقوة العقل الخصيب ، و تتضمن هذه الخطب و الرسائل اظهر مميزات هذا الاسلوب وهى : التكرار ، و استعمال المترادفات و ضرب الامثال و اختيار الكلمات الجزلة ذات الرنين ويحسن فيه ان تتعاقب ضروب التعبير من اخبار الى استفهام الى تعجب ، ولجمال هذا الاسلوب و وضوحه شأن كبير فى تأثير و وصوله الى قرارة النفوس ، و قد غلب على الخطابة فى عهد الخلفاء الراشدين نزعة الارشاد و الحث على التقوى اما من ناحيه الاسلوب الادبى فوجد فيها الجمال الفنى ، و ابرز صفاته و اظهر مميزاته هو خيال رائع و تصوير دقيق و تلمس لوجوه الشبه البعيدة بين الاشياء و الباس المعقول ثوب المحسوس

١- نفس المرجع ، ج ٤ ، ص ٢٨٩-٢٩٠

٢- ادب الحديث النبوى للدكتور بكرى شيخ امين ، ص ١٠٣

و اظهار المحسوس فى صورة المنوى و قدتميزت هذه الخطب و الرسائل بالوضوح و القوة ، ولاثبات ذلک نورد بعض النماذج الخطب و الرسائل فى انواع البلاغة الثلاثة وهى:علم البيان و علم المعانى و علم البديع، اما علم البيان فهناک فى الخطب و الرسائل التشبيهات البليغة و الاستعارات الرائعة و الكنايات البديعة.

علم البيان :

و من قول ابى بكر الصديق - رضى الله عنه - حين وصى عمرو ابن العاص : « . . . فكن من عمال الاخرة وارد بما تعمل وجه الله ، وكن والدا لمن معک ، ولا تكشفن الناس عن استارهم واكتف بعلانيتهم . . . »[١]

ففى هذا التعبير «كن والدا لمن معلک» تشبيه بليغ (حذفت فيه اداة التشبيه و وجه الشبه) حيث شبه حال الوالى بين رعيته بحال الوالد بين اولاده بجامع الشفقه و الرحمة وارادة الخير و التاديب فى كل.

و من قوله حين استخلف عمر بعد :

«و اوصيک باهل الزمة خيرا : ان تقاتل من ورائهم ، ولا تكلفهم فوق طاقتهم ، اذا ادوا ما عليهم للمومنين طوعا اوعن يد . . . »[٢]

«عن يد» هذه كناية عن ذل ، و هو يريد ان يعبر بهذا التركيب اخضاع اهل الزمة ان لم يؤدوا ما عليهم للمسلمين فعدل عن التصريح بهذه الصفة الى الاشارة اليها والكناية عنها، و من اوضح ميزات الكناية التعبير عن القبيح بها تستسيغ الاذان سماعه و امثلة ذلک كثيرة جدا فى القرآن الكريم و كلام العرب ، فقد كانوا لايعبرون عمالا يستحسن ذكره الا بالكناية.

و من قوله : « . . . و انما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق فى دارالدنيا و ثقله عليهم ، و حق لميزان ان يوضع فيه الحق غدا ان يكون ثقيلا . . . »[٣]

فنجد فى التعبير (و حق لميزان يوضع فيه الحق غدا ان يكون ثقيلا) الباس المعنوى لباس المحسوس من البلاغة . (و من خطبة عمر بن الخطاب رضى الله عنه:

« . . . الاوانى انزلت نفسى من مال الله بمنزلة ولى اليتيم ، ان استغنيت و ان افتقرت اكلت بالمعروف . . . »[٤]

١- حياة الصحابة لمحمد يوسف الكاندهلوى ، ج ٢ ، ص ٢٦٣

٢- المبيان و التبيين للجاحظ ، ج ٢ ، ص ٦٢

٣- حياة الصحابة لمحمد يوسف الكاندهلوى ، ج ٢ ، ص ٢٦١

٤- تاريخ الخلفاء للسيوطى ، ص ١٣٩

شبه حاله بالنسبة لمال الرعية بحال ولى اليتيم بجامع العفاف فى الغنى والا كل بالمعروف فى الفقر و الحاجة فى كل.

و من رسالته الى ابى موسى الاشعرى :

«ولا يمنعك قضاء قضيته بالا مس فراجعت فيه نفسك و هديت فيه لرشدك ، ان ترجع عنه الى الحق ، فان الحق قديم ، و مراجعة الحق خير من التمادى فى الباطل ، الفهم الفهم عند ما يتلجلج فى صدرك . . . »[١]

شبه الحكم الشاك فيه بشىء قلق يتحرك حركة مضطربة و تنوسى التشبيه وادعى ان المشبه أحد أفراد المشبه به و اثبت له شىء من لوازمه و هى اللجاجة على سبيل الاستعارة المكنية.

و من خطبه لعثمان بن عفان رضى الله عنه :

« . . . الا و ان الدنيا خضرة قد شهيت الى الناس ، و مال اليها كثيره منهم افلاتركنوا الى الدنيا ولاتثقوا بها . . . »[٢]

و فى التعبير (الدنياخضرة) تشبيه بليغ و الباس المعنوى ثوب المحسوس.

و من قوله : «. . . اتقو الله جل و عز ، فان تقواء جنة من بأسه و وسيلة عنده . . . »[٣]

هنا تشبيه المعقول بالمحسوس حيث شبه (التقوى) هى معقوله بالجنة و هى محسوس.

— و من خطبة لعلى رضى الله عنه :

«... عباد الله لا تغرنكم الحياة الدنيا، فانها دار بالبلاء محفوفة، و بالفناءمعروفة و بالغدر موصوفة، و كل ما فيها الى زوال، و هى مابين اهلها دول و سجال ، لن يلم من شرها نزالها . . . و العيش فيها مذموم و الرخاء فيها لايدوم . . . »[٤]

شبه الدنيا بدار مذمومة بسرعة زوالها و سرعة تغير حالها و عدم السلامة من شرها.

و من رسالته عبدالله بن عباس رضى الله عنه :

« . . . اتسع للناس بوجهك و عملك و حكمك و اياك و الا حسن فانها تميت القلوب و الحق . . . »[٥]

١- البيان و التبيين للجاحظ ، ج ٢ ، ص ٦٤
٢- حياة الصحابة ليوسف الكاندهلوى ، ج ٤ ، ص ٢٨٢
٣- حياة الصحابة ليوسف الكاندهلوى ، ج ٤ ، ص ٢٧٨
٤- نفس المرجع ، ج ٤ ، ص ٢٨٦
٥- الامامة و السياسة لابن قتيبة الدينورى ، ج ١ ، ص ٨٥

شبه الوجه «و عطف عليه العلم و الحكم» بالمكان الذى يمكن ان ينفسح للناس و تناسى التشبيه وادعى ان المشبه احد افراد المشبه به واثبت له شيى من لوازمه وهو الاتساع على سبيل الاستعارة المكنية.

علم المعانى

هو اخراج المعنى فى احسن الصور الموضحة له و ايصاله الى فهم المخاطب باقرب الطرق و اسهلها فانه عين البلاغة و قد تأتى العبارة عن طريق الخبر و الانشاء و قد تأتى عن طريق الايجاز و الاطناب و قد تأتى عن طريق الفصل و الوصل.

من قول ابى بكر - رضى الله عنه :

«ايها الناس ، انى وليت عليكم ، ولست بخير كم . . .»

فصل بين الجملتين : «ايها الناس» و «انى وليت عليكم» لاختلافهما خبرا و انشاء فبينها كمال الانقطاع ، و وصل بين الجملتين :

«وليت عليكم» ولست بخير كم «لانه اريد اشراكهما فى الحكم الاعرابى اذكلتا هما فى محل رفع و اذا كانت الواو للحال فلا وصل ، و هنا غرض الخبر ، الست بخير كم ، هو اظهار العجز و الانكسار.

و من قوله : «. . . الصدق امانة ، و الكذب خيانة . . .»

هنا جملتان بليغتان ولكل جملة معان كثيرة تركزت فى حبة ، وكل جملة منها تحتاج لبحث شامل ، فهذا الاسلوب يسمى ايجازاً بدون حذف فى البلاغة.

و من رسالة عمر بن الخطاب الى ابى موسى الاشعرى رضى الله عنهما :« . . . آس بين الناس فى وجهك و عدلك ، و مجلسك ، حتى لايطمع شريف فى حيفك ، و يخاف ضعيف من جورك ، البينة على من ادعى و اليمين على الكر ، و الصلح جائز بين المسلمين الا صلحا حرم حلالا اواحل حراما ، ولا يمنعك قضاء قضيته بالا مس فراجعت فيه نفسك ، و هديت فيه لرشدك ان ترجع عنه الى الحق ، فان الحق قديم.

و مراجعة الحق خير من التمادى فى الباطل . . .»[1]

بالتأمل فى هذه القطعة تجد فيها الوانا من التعبير (١) البينة على من ادعى (٢) لايطمع شريف فى حيفك (٣) آس بين الناس فى وجهك (٤) لايمنعك قضاء قضيته بالا مس فراجعت فيه نفسك.

١- البيان و التبيين للجاحظ ، ج ٢ ، ص ٦٤

و فى التعبير الاول نجد الجملة مؤلفة من مبتدا و خبر ، ويمكن ان نقول ان ما تنمنته من حكم : صادق اوكاذب ، و فى الثانى نجد الجملة مؤلفة من فعل و فاعل و هى كذلك ـ صالحة للكم عليها بالصدق و الكذب ، و الفرق بينهما و بين الاولى ان احداهما مثبة و الاخرى منفية ، و الاولى جملة اسمية و الثانية فعلية.

اما جملة «آمن بين الناس» فهى مكونة من فعل امر و فاعله ، و الكلام لايحتمل ان يقال فيه انه صادق اوكاذب ، و كذك جملة «لايمنعك» فهى ايضاً طلبية ، و الفرق ان الاولى امرو الثانية نهى و قد سمى العلماء النوع الاول «الخبر» و النوع الثانى «الانشاء».

و من قوله :

« . . . و انى امرؤ مسلم و عبد ضعيف ، الا ما اعان الله عز و جل ، . . . انما العظمة لله عز و جل ، وليس للعباد منها شى . . . »[١]

و جاء تعبير «انى امرؤ مسلم و عبد ضعيف . . .» عن طريق الخبر و غرضه اظهار الضعيف و العجز ، و جاء التعبير الثانى على اسلوب القصر «انما العظمة لله . . . «قصر العظمة على الله قصر صفة على موصوف.

و امثلة الامرو النهى «الانشاء الطلبى» على سبيل النصح و الارشاد من وصية عمر بن الخطاب لسعد بن ابى وقاص و عتبة بن غزوان رضى الله عنهم :

«يا سعد سعد بنى وصيب لايغرنك من الله ان قيل خال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، . . . فان الله ليس بينه و بين احد نسب الاطاعته . . . فعود نفسك و من معك الخير و استفتح به» ، . . .

«فالصبر على ما اصابك و نابك . . . »

«يا عتبة انى قد استعملتك على ارض الهند . . . واتق الله فيما وليت و اياك ان تنازعك الى كبر يفسد عليك آخر تك . . . »[٢]

و من خطبة لعثمان بن عفان ـ رضى الله عنه :

«ابن آدم ، اعلم ان ملك الموت الذى وكل بك لم يزل يخلفك و يتخطى الى غيرك منذ انت فى الدنيا ، وكانه قد تخطى غيرك عليك و قصدك ، فخذ حذرك و استعدله ، ولا تغفل فانه لايغفل عنك . . . »[٣]

١ـ حياة الصحابة لمحمد يوسف الكاندهلوى ، ج ٤ ، ص ٢٦٢

٢ـ نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٢٧١-٢٧٣

٣ـ حياة الصحابة لمحمد يوسف الكاندهلوى ، ج ٤ ، ص ٢٧٨

و فی هذه العبارات (فخذ حذرک و استعدله ، ولا تغفل . . .).
لم تأت صیغة الامر للدلالة علی المعنی الاصلی و انما جاءت لتفید النصح و الارشاد.

و من خطبة لعثمان بن عفان - رضی الله عنه :

«اما بعد فانی قد حملت و قد قبلت ، الا و انی متبع ولست بمبتدع ، الا و ان لکم علی بعد کتاب الله عز و جل و سنة نبیه صلی الله علیه وسلم ثلاثا : اتباع من کان قبل فیما اجتمعتم علیه وسننتم ، وسن سنة اهل الخیر فیما لم تسنوا عن ملاء ، و الکف عنکم الا فیما استوجبتم ، الا و ان الدنیا خضرة قد شهیت الی الناس ، و مال الیها کثیر منهم ، فلاترکنوا الی الدنیا ، ولا تثقوا بها ، فانها لیست بثقة و اعلموا انها غیر تارکة الامن ترکها»[١]

بالتأمل فی هذه الخطبة نجد فیها الوانا من التعبیر (١) الا و انی متبع ولست بمبتدع (٢) و الکف عنکم الا فیما استوجبتم و فی التعبیر الاول نجد کمال الانفصال، و وصل بین الجملتین : «انی متبع» «واست بمبتدع» لانه اریید اشرا کهما فی الحکم الاعرابی اذکلتا هما فی محل رفع ، و اذا کانت الواو للحال فلاوصل.

و فی التعبیر الثانی نجد الاسلوب عن الکلام یسمی ایجازا (بدون حذف) و لما کان مدار الایجاز هنا علی اتساع الالفاظ القلیلة للمعانی المتکاثرة و الاغراض المتزاحمة لاعلی حذف بعض کلمات او جمل سمی ایجاز قصر.

و امثلة الامر (الانشاء الطلبی) من رسالة لعلی - رضی الله عنه - بعث بها الی عبدالله ابن عباس - رضی الله عنه-اما بعد، فأقم للناس الحج و ذکرهم بأ یام الله واجلس لهم العصرین، فافت المستفتی، و علم الجاهل و ذکرالعالم».[٢]

فهذه العبارات تشتمل علی صیغة الامر ، و هذا هو الامر الحقیقی و هناجاءتصیغة الامر علی وجه التکلیف و الالزام.

و من قوله : «ایها الناس . . . .
و انا اخوف ما أخاف علیکم اتباع الهوی و طول الامل...»[٣]
هنا فی هذا الترکیب «اتباع الهوی و طول الامل» و جد ایجاز بلاحذف - ایجاز قصر الالفاظ قلیلة و المعانی کثیرة.

١- نفس المرجع ، ج ٤ ، ص ٢٧٨ تاریخ الامم و الملوک للطبری ، ج ٥ ، ص ١٤٩
٢- البلاغة الواضحة لعلی الجارم و مصطفی امین ، ص ١٧٦
٣- حیاة الصحابة لمحمد یوسف الکاندهلوی ، ج ٤ ، ص ٢٩٢

علم البديع :

و هناک ناحية أخرى من نواحي البلاغة ، لا تتناول مباحث علم البيان ولاتنظر في مسائل علم المعاني و يسمى العلم الجامع لهذه المباحث بعلم البديع و هو يشتمل على محسنات لفظية و على محسنات معنوية .

من محسنات لفظيه:الجناس و الاقتباس و السجع و من محسنات معنوية : التورية و الطباق و المقابلة .

و قد امتلات الخطب و الرسائل بالا مثلة الرائعة من علم البديع .

و من قول ابى بكر الصديق رضى الله عنه :

«فان احسنت فاعينونى ، و ان اسات فقومونى».

و بالتامل فى هذه العبارات نجد فقرتين متماثلتين فى كل جملة ، و هذا افضل السجع «السجع توافق الفاصلتين فى الحرف الاخير وافضله ماتساوت فقره»[1] نجد السجع هنا رصين التركيب و سليما من التكلف و خاليا من التكرار فى غير فائدة .

و فيها المقابلة ايضا : احسنت ـ اسات .

و وجد السجع و المقابلة فى قوله : «الصدق امانة و الكذب خيانة» و مثال السجع من قول عمر بن الخطاب رضى الله عنه :

«... و انما علينا ان نامركم بما أمركم الله به من طاعته، و ننهاكم عما نهاكم الله عنه من معصيته».[2]

و مثال الاقتباس من وصية عمر لابى عبيدة ابن الجراح رضى الله عنهما :

«اوصيک بتقوى الله الذى يبقى و يغنى ما سواه ، الذى هدانا من الضلالة و اخرجنا من الظلمات الى النور . . .».[3]

«الذى هدانا من الضلالة و اخرجنا من الظلمات الى النور» (ماخوذة من القرآن الكريم) على سبيل الاقتباس .

و امثلة السجع و المقابلة من كلام عثمان بن عفان رضى الله عنه :

«ان الله عز و جل انما اعطاكم الدنيا لتطلبوا بها الاخرة ، و لم يعطكموها لتركنوا اليها ، ان الدنيا تفنى و الاخرة تبقى ، فلاتبطرنكم الفانية و لا تشغلنكم

١- البلاغة الواضحة لعلى الجارم و مصطفى امين ، ص ٢٧٣

٢- حياة الصحابة لمحمد يوسف الكاندهلوى ، ج ٤ ص ٢٥٦

٣- نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٢٧٠

عن الباقية».[1]

المقابلة : الدنيا ـ الاخرة

الفانية ـ الباقية

السجع : تفنى ـ تبقى

و امثلة السجع و الاقتباس من رسالة على الى الاشتر النخعى :

«ثم انظر فى امور عمالك ، فاستعملهم اختبارا ولا توليهم محاباة و اثرة . . . . والقدم فى الاسلام المتقدمة ، فانهم اكرم و اخلاقا ، واصح اعراضا ، واقل فى المطامع اشرافا ، و ابلغ فى عواقب الامور نظرا . . . »[2].

و من قوله :

« . . . وراءكم طالب حثيث القبر ، فاحذروا ضغطته و ظلمته و وحشته ، الاوان القبر حفرة من حفر النار ، او روضة من رياض الجنة».[3]

الاقتباس «ان القبر حفرة من حفر النار اوروضة من رياض الجنة»

العبارتان اللتان بين الاقواس ماخوذ تان من الحديث الشريف و قد ضمن الخليفة كلامه هذه الاثار الشريفة من غير ان يصرح بانها من الحديث و غرضه من هذا التضمين ان يستعير من قولها قوة .

و من وضوحهما وضوح .

١ـ حياة الصحابة لمحمد يوسف الكاندهلوى ، ج ٤ ، ص ٢٨٢

٢ـ شرح نهج البلاغة لا بن ابى الحديد ، ج ٤ ، ص ١٣٤

٣ـ حياة الصحابة ليوسف الكاندهلوى ، ج ٤ ، ص ٢٨٥

المراجع :

١- القرآن الكريم

٢- ابن ابى الحديد - شرح نهج البلاغة - بيروت - دار احياء التراث العربى

٣- ابن ابى يعقوب - احمد - تاريخ اليعقوبى - النجف - مطبعة الفرى - ١٣٥٨هـ

٤- ابن الاثير - الكامل - مدينة ليدن ، ١٨٦٨م

٥- ابن تيمية - السياسة الشرعية فى اصلاح الراعى و الرعية - بيروت - دارالكتب العربية

٦- ابن جرير - الطبرى - تاريخ الامم و الملوك - بيروت - دارالقلم

٧- ابن حسن - فتح المجيد شرح كتاب التوحيد - المدينة المنورة - المكتبة السلفية ، ١٢١١هـ

٨- ابن قتيبة الدينورى - الامامة و السياسة - مصر - مصطفى البابى الحلبى ، ١٩٧٠م

٩- ابن كثير - تفسير ابن كثير - لاهور - ١٩٧٢م ضياء الكيدى

١٠- ابن هشام - السيرة النبوية - مصر - مطبعة مصطفى البابى الحلبى ، ١٣٥٥هـ

١١- احمد زكى صفوت - جمهرة خطب العرب - مصر - مكتبة مصفطى البابى الحلبى ، ١٣٥٢هـ

١٢- البخارى - صحيح البخارى - بيروت - دارالفكر ، ١٤٠١هـ

١٣- بكرى - الشيخ امين الدكتور - ادب الحديث النبوى - بيروت - مكتبة لبنان ، ١٩٧٧م

١٤- التبريزى - مشكواة المصابيح ، دهلى - نور محمد جامع مسجد ، ١٩٣٢م

١٥- الجاحظ - البيان و التبيين - بيروت ، دارالفكر ، ١٩٦٨م

١٦- الجرجانى - عبدالقاهر - اسرار البلاغة - لاهور ، ١٩٢٢م

١٧- السيوطى - تاريخ الخلفاء - كراتشى- نور محمد كارخانه تجارت كتب

١٨- على الجارم - البلاغة الواضحة - مصر - دارالمعارف ، ١٩٧٥م

١٩- على محمد حسن - اسرار البيان - مصر - الادارة العامة للمعاهد الازهرية ، ١٩٧٤م

٢٠- على محمد حسن - توضيح المعانى - مصر- دارالقومية العربية ، ١٩٦٤م
٢١- قطب - السيد - العدالة الاجتماعية- بيروت - دارالشروق ، ١٩٧٤م
٢٢- فى طلال القرآن - بيروت - دار احياء التراث العربى ، ١٩٧١م
٢٣- محمد يوسف الكاندهلوى - حياة الصحابة - دمشق - دارالقلم ، ١٣٨٩م
٢٤- المنذرى - الترغيب و الترهيب - دارالفكر ، ١٣٩٩هـ
٢٥- الواقدى - فتوح الشام - بيروت - دار احياء التراث العربى
٢٦- الغزالى - احياء علوم الدين